قراءات

مجموعة من الباحثين

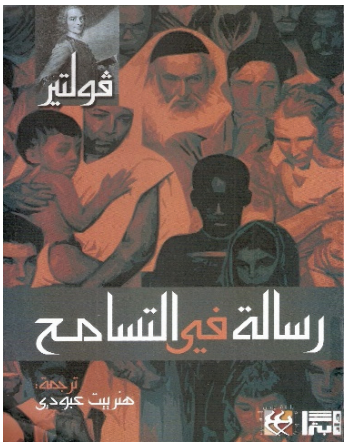

رسالةٌ في التسامح

فولتير

ترجمة هنرييت عبودي

دار بترا، دمشق، ٢٠٠٩

قراءة عدنان فالح

قال نيتشـه في (هذا هو الإنسـان)، مُستذكِراً إهداءَهُ أحدَ كتبِه للمفكِّر الفرنسـيِّ فولتيـر (١٦٩٤-١٧٧٨)، إنّ فولتير، «وخلافـاً لكلِّ مَن كتَبَ من بعده، يظلُّ قبل كلِّ شـيءٍ سـيِّداً كبيراً في مجال الفكر: تماماً مثلي أنا أيضاً، اسم فولتير فوق كتابٍ لي؛ إنّه لتقدّمٌ باتّجاه نفسي».

وباختصـارٍ أقول: طالما اسـتوقفتني تلك العلاقةُ التي ابتدأها نيتشـه

بذلك الإهداءِ الذي جاء مع اقتراب مئويّة وفاة فولتير، والذي «أثار لديَّ رغبةً قويّةً في أنْ أقدِّم تحيّةً شخصيّةً، في الوقت المناسب، لواحدٍ من أكبر محرِّري العقل»، كما جاء في ذلك الإهداء. فالاثنانِ قدْ وُلِدا محاربَين، أو للعراك، كما عبَّر فولتير. والمحارب إذْ يبحثُ عن الحقيقة، فهو لا يخشى أنْ يبحث عنها في دهاليز عالم خبيءٍ خلف ستارٍ شديدٍ من المُثُل الكاذبة؛ ذلك أنَّ العقل يُحيل كلَّ ما يمسكه إلى نورٍ، وما يتركه إلاّ رماداً.

لكنّ للمحارب أخلاقَه التي تأبى له أنْ يحتفلَ بنصرٍ سهلٍ، أو غادرٍ؛ فلَطالما حدَّدَ نيتشه لنفسه، وللمحاربين الآخرين قواعدَ أخلاقيّةً لا يجب تجاوزها. وقدْ أوجز نيتشه تلك القواعد في (هذا هو الإنسان) كما يلي:

١. لا تهاجم إلاّ ما هو مجلبةٌ للنصر، وإنْ اقتضى الأمرُ، انتظرْ حتّى يصبح بإمكانِه أنْ يكون مجلبةً للنصر.
٢. لا تهاجم إلاّ ما لا حليفٌ لكَ عليه، حيثُ تقفُ وحدكَ في المعركة، وحيثُ لا تورِّطُ إلاّ نفسَكَ.
٣. لا تهاجم الأشخاصَ كأشخاص، بل استعملْ الأشخاصَ كزجاجٍ مكبّرٍ يمكنُ لَكَ بواسطته أنْ تجعل كارثةً عموميّةً مراوغةً ومتستّرةً ومستعصيةً على الإدراك أمراً مرئيّاً واضحاً للعيان.
٤. لا تهاجم إلاّ ما هو خالٍ من كلِّ خلافٍ شخصيٍّ، ومن كلِّ خلفيّاتِ التجارب السيِّئة.

ويبدو أنَّ هذا الموضوعَ، وتلك القواعدَ، قد بدأتْ تلحُّ بالظهور على نيتشه متزامنةً مع اهتمامه بشخصيّة المفكِّر الفرنسيِّ الساخر، الذي أيقظ روحَ الدعابة الفلسفيّة بعد أنْ تمَّ تنويمُها على يدي اسبينوزا. ولتوضيح هذا، فإنّنا نجدُ أنفسنا مجبرين على الاستشهادِ بفقرةٍ كاملةٍ من كتاب (إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيّته، الجزء الثاني)، يقول نيتشه: «إذا أردنا الانتقام من خصمنا فإنّه علينا الانتظار حتّى نتوفَّر على حفنةٍ من الحقائق والتفاصيل الصائبة التي يمكننا استغلالها ضدَّه دون انفعالٍ، بحيث أنَّ الانتقام يتزامن مع ممارسة العدل. إنّه أبشعُ أنواع الانتقام، لأنّه ليست فوقه أيَّةُ سلطةٍ يمكن اللجوء إليها. هكذا انتقم فولتير من بيرون (Piron) بخمسة أسطرٍ تحكم على حياته كلِّها، على أعماله وعلى نواياه: الكلمات بقدر الحقائق، وبنفس الطريقة انتقم كذلك من فردريك الكبير (في رسالةٍ وجَّهها له من Ferney)».

إنَّ تلك العلاقة لا تقف في حدود قواعد الشرف أبداً؛ ذلك أنَّ مثلَ هذا الاطراء بالإمكان تتبّعه في معظم، إنْ لمْ يكنْ في كلِّ كتبه التي جاءتْ بعد كتابه (إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيَّته)، بلْ أنّنا وجدنا أنّ نيتشه قدْ سمّى في (العلم الجذل) فقرةً باسمه، كما قدْ أسهبَ في المقالة الثانية من الكتاب الأوَّل من (إرادة القوَّة) في الإشادةِ بفولتير الذي قاوم «من أجلِ الذوق والعلم والفنون، وحتّى من أجلِ قضيّة التقدّم والحضارة»، وقدْ ميَّزه بأعلى الصفات التي أغدقَها على بطلِه الأرستقراطيِّ: «فولتير، بالنسبة للـ«أوغاد»، إلهٌ مثيبٌ

ومنتقمٌ».

وقد وصل نيتشه في إشادته لفولتير حدّاً أنْ اشتقَّ من اسمه صفةً أطلقها بحقِّ المعلِّم شوبنهاور، لتكون فاصلاً بينه وبين تلاميذِهِ البرابرةِ الألمان، الذين لمْ يدركوا ثقافته العالية. يقول نيتشه في (العلم الجذل): «لأنّه؛ أيْ شوبنهاور، كان نقيّاً في ذلك نقاءً لمْ يصلْ إليه أيُّ فيلسوفٍ ألمانيٍّ حتّى الآن، لدرجة أنّه عاش ومات «فولتريّاً»».

والسؤالُ الآن: ما الذي وجدَهُ نيتشه لدى فولتير، ولمْ يجدْهُ لدى الآخرين؟

لإنارةِ ذلك السؤال، فإنّه يتوجَّب علينا أنْ نقابلَ بين فولتير وبعضِ معاصريه من الذين شاركوه حلمَ التنوير، وبالذات جانَ جاك روسّو. وباختيارنا للأخير، فإنّنا نبتعد عن بعض الشخصيّات التي زوَّدتْها الطبيعةُ، لنزوةٍ فيها، بالعبقريّة، وهي لا تعدو أنْ تكون تيساً أو قرداً، «كالأب غالياني، الإنسان الأعمق والأثقب نظراً وربَّما الأقذر في عصرِهِ –وكان أعمقَ بكثيرٍ من فولتير وبالتالي أكثرَ تكتّماً منه أيضاً»، كما قال نيتشه في (ما وراء الخيرِ والشرِّ).

لا شكَّ في أنَّ نيتشه يكنُّ لروسّو الكثيرَ من الإعجاب؛ فهو ينسبُ له تيّارَ النهضة الأخلاقيّة الذي عرفته أوروبّا، كما أنّه قدْ جمَعَ روسّو مع أفلاطون، مثلما جمع غوته واسبينوزا، أو باسكال وشوبنهاور، قائلاً إنّه مدينٌ لهؤلاء، كما أنَّ «هؤلاء همْ مَن يجب أنْ أُقدِّم لهم تبريراً لما أفعله»، (إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيَّته).

لكنَّ نيتشه، كعادتِهِ، لم يبخلْ بمطرقتِهِ على روسّو، والتي حطَّم فيها العمودَ الفقريَّ الذي قامتْ عليه فلسفتُهُ. لقد فطنَ نيتشه إلى أنّ إيمانَ روسّو بطيبةِ الجبَلَةِ الإنسانيّةِ هو الذي شحَذَ أشدَّ الطاقاتِ توحّشاً في النفسِ الإنسانيّة، باعثاً الرعبَ والقسوةَ المطمورين منذُ أمدٍ طويلٍ؛ فالوحيدُ هو «وحده الشرِّير»، كما قالَ ديدرو، وأنَّ كلَّ غريزةٍ خبيثةٍ تجدُ نفسَها مضطرَّةً لوضع العديد من الأقنعة لكي تخفي قبحَها، وسريرتَها المريضة.

وإذا كان ما ذكرناه سابقاً كان محلَّ خلافٍ شديدٍ بين فولتير وروسّو، فإنَّ نيتشه قدْ وضَعَ يدَهُ على أكثر من ذلك؛ فباعتقادِهِ أنَّ فولتير، «بطبعه المتّزن، الذي يميل إلى التنظيم والتطهيرِ وإعادةِ البناء»، لمْ يكنْ مسؤولاً عن تلكَ الصروح الأخلاقيّة الشامخة التي جاءتْ بها الثورةُ الفرنسيّة، بلْ كان روسّو، أوْ أحد تلاميذه، «أعني روبسبير، الذي كان يريد إقامةَ الحكمةِ، والعدلِ، والفضيلةِ على الأرض»، (الفجر).

إنَّ ما أراد نيتشه قولَهُ هو أنَّ روسّو، بكلِّ حماقاته وأكاذيبه المتحمّسة، هو الذي طردَ لمدَّةٍ طويلةٍ روحَ الأنوارِ وروحَ التطوّر التدريجيِّ. وعلى سبيل المثال، فإنَّ نيتشه يُرجِعُ انحطاطَ الروح الفرنسيّة لقوَّةِ تأثيرِ كتاب مثل (الاعترافات)، أو (إميل) لروسّو: فسانت بوف لا أثر للرجولة فيه، لأنَّ له في ضغينتِهِ قرابةً لروسّو، كما أنَّ جورج صاند مُزيَّفةٌ، فقاعيّةٌ، وموغلةٌ في المبالغة، «تلك البقرةُ الحلوب... مثل معلِّمها روسّو، وهو أمرٌ لمْ يكنْ ليكتب له أنْ يغدو ممكناً إلاّ بسبب الانحطاط الذي طال الذوقَ الفرنسيَّ»، (غسقُ الأوثان).

كما أنَّ نيتشه، وللإيغالِ بالسخريةِ من روسّو وتلاميذِهِ، فإنّه، أيضاً يتكلَّم عن «عودةٍ إلى الطبيعة»،

لكـنَّ الأمرَ لا يتعلَّق بعودةٍ إلى الوراء، بلْ بارتقاءٍ حرٍّ، ونمـطٍ طبيعـيٍّ يلعـبُ: كان «نابليون نوعاً مـن العودةِ للطبيعة، أمّا روسّـو، فإلى أيِّ شـيءٍ يريد أنْ يعود هذا الرجل؟»، (غسقُ الأوثان).

بقِيَ أنْ نقول، إنَّ الوجهَ الدينيَّ الذي توارى خلف أقنعـةِ رجلِ الطبيعةِ الروسّـوي لا يمكـن إخفاؤُهُ إلى الأبـد، وهـذا مـا فضحه فولتيـر في كلِّ مـا كتب، كما أنّه قدْ شـكَّلَ مأثرتَـهُ الخالدةَ أيضاً. لقـدْ فطنَ فولتير، قبـل شـوبنهاور، وبالطبـع قبـل نيتشـه أيضاً، إلـى أنَّ المسـيحيّة سـتقودُ أوروبّا لامحالة إلى العدميّة، ومن ثمَّ إلى الانتحار الشـامل، وكما قال نيتشـه في (العلم الجذل)، فما المسيحيّة إلاّ «حبَّةٌ طائشةٌ من البوذيّة».

لكـنَّ الذي لـمْ يدركْهُ فولتير جيِّداً، والذي شـخَّصهُ نيتشـه على أنّه مرضُ الحضـارةِ الغربيّة المزمن، هو أنَّ الأخلاقَ بوصفها طقساً، تنافرُ الذوقَ العام، تماماً مثلما أمسـتْ المسـيحيّةُ طقسـاً منافياً للذوق، ونكون بذلك قـدْ وصلنا إلى اسـتهجانِ الدينِ وتجريحِـهِ على طريقةِ فولتير.

فما كانتْ طريقةُ فولتير؟

حيـنَ نقـول طريقـةَ فولتيـر، فإنّنا لا نسـتثني أحداً مـن المفكِّرين الذين عاصروا فولتيـر، والذين حلموا بعالم يسودُهُ العقلُ والتسامحُ والمحبَّةُ. وهذا بالضبط مـا رفضـه نيتشـه، الـذي ناضـل ضـدَّ كلِّ الفضائـل المسيحيّة، ومن قبلها السقراطيّة، يقول: «في وجداننا موسـيقى، فـي روحنـا رقصٌ لا تنسـجم معهمـا البتَّة الطِلبـةُ المتطهّـرة والمواعـظُ الأخلاقيّـةُ والتظاهـرُ بالطيبةِ والاستقامة»، (ما وراء الخيرِ والشرِّ).

سـنختبر الآن هـذا القول، وسـنرى إلـى أيِّ مدىً يمكـن لـه أن يصمـد، وذلك بـأنْ نتنـاولَ كتابـاً مهمّاً لفولتير، أنتجتْهُ فترةٌ حرجةٌ من حياة الفرنسيّين، مثلما سـاعدَ في إنتاج تلك الفترةِ بالذات، إنّه كتابُ (رسالةٍ في التسامح).

بدايـةً، لا بدَّ من الاعتـراف أنَّ كلَّ محاولةٍ موجزةٍ لقراءةٍ مثل هكذا سِـفْرٍ سـتُنعَتُ بالتقصير، إنْ لمْ يكنْ مصيرُها الفشـل! فبين محاكمةِ أسـرةٍ بروتستانتيّةٍ من قِبَـلِ كاثوليكيّين متعصِّبيـن، ومتعطِّشـين لأنْ يروهم مُتقطَّعيـن علـى دولابِ المـوت، إلـى انتظـارِ نتيجـةِ إعادةِ محاكمتهما في آخر فصلٍ من الكتاب، هناكَ كمٌّ هائلٌ من الأفكار، والمعلوماتِ المهمَّة، والحواشي، والأسـماءِ الكثيـرةِ لأنـاسٍ عظمـاءَ، وأخرى لسـفلةٍ غادريـن، ممّا جعـل الإحاطة بكلِّ ذلك غيـر ممكنةٍ، لكنَّهـا، بالتأكيد، تضعُنا، أو وضعتنا في أجواءِ فرنسـا التي سبقتْ ثورتَها الكبرى.

يبـدأ فولتيـر بالتسـاؤلِ عمّـا يجعلُ من قتـلِ امرئٍ واحـدٍ جريمةً كبرى، بينما يدُ النسـيان تطوي بسـرعةٍ صفحـةَ الآلافِ المؤلَّفـةِ من الضحايـا الذين يقضون نحبَهـم فـي سـاحات الوغـى. وإذا كانـتْ الإجابـةُ التقليديّـة التي تقـول: إنَّ أولئكَ الذيـن يلقونَ حتفهم بسـلاحِ العـدوِّ كان يمكن بدورهـم أنْ يُنزلوا المصيرَ نفسَـه بهذا العـدوِّ، فضلاً عـن أنّهم لم يسـقطوا وهم عـزَّلٌ مـن وسـائلِ الدفـاعِ عن النفسِ، يمكـنُ لها أنْ تعدِمَ أسـبابَ التساؤلِ والاسـتغرابِ، ومن ثمَّ مشاعرَ

التعاطف والشفقة، فإنَّ الإجابةَ عن السؤالِ الأوَّلِ لا يمكنُ أنْ ترضى بأقلِّ من تأليفِ كتاب.

يتساءل فولتير: أليسَ من مصلحةِ الجنسِ البشريِّ الفحصُ عمّا إذا كان الدينُ رحيماً، أو، بالعكس، همجيّاً؛ ذلك أنَّ الكثيرَ من رجالِ الدين يدَّعي أنَّ النزعةَ الإنسانيّةَ، والتسامحَ، وحرِّيّةَ التعبيرِ أمورٌ رهيبةٌ؟ مَن المسؤولُ عن الآلافِ الذينَ يُدفنونَ أحياءً، أو الذينَ يُعلَّقونَ على المشانق، ويُتركونَ هناك لافظينَ أنفاسَهم الأخيرةَ؟ أليسَ هو الدينُ، أو الغلوُّ في الدينِ المُساءَ فهمَه، الذي يدفعُ العقلَ اللاهوتيَّ إلى كلِّ هذا القتلِ المسعور؟

ولكنْ، ماذا تريدُ كلُّ تلك الأخويّاتِ المنتشرةِ في أوروبّا، والتي ما زالتْ مُصرَّةً على التمايزِ عن بقيّةِ المواطنين؟ في الإجابةِ عن مثلِ هذه الأسئلة، فإنَّ فولتير يزيلُ المزيدَ من الأقنعةِ التي تتخفّى خلفها إرادةُ ذلك العقلِ اللاهوتيِّ، والذي يشعرُهم بتفوّقِهم، ممّا ينطوي على إهانةٍ لبقيّة أفرادِ الأمّة.

ويختمُ فولتير تساؤلاتِه بمرأى أوروبّا التي بدأتْ تتحرَّرُ من عقليّةِ صكوكِ الغفران، وقتلِ الأطفالِ بحجَّةِ المحافظةِ على براءتهم، وقدْ خضعتْ للإخوان، فيقول بسخريةٍ مرَّة: «فيا لروعةِ مشهدِ أوروبّا وقدْ تلحَّفت ببرنسَ وأخفتْ وجهَها خلف قناعِ ذي ثقبينِ عند العينين! أمِنَ المعقولِ أنْ يتصوَّر المرءُ أنَّ اللهَ يُفضِّلُ هذا الزيَّ المضحكَ على الهندامِ العاديِّ؟».

لإثباتِ فرضيّاتِه التي تدعو إلى التسامح، وإشاعةِ حرِّيّةِ الاعتقاد، فإنَّ فولتير يخرجُ من دائرةِ أوروبّا الضيِّقةِ، فيُذكِّرُ مواطنيه بما يجري حولهم لتأمُّلِه جيِّداً، والتفكُّرِ فيه. ويبدو أنَّ ثقافةَ فولتير كانتْ تُؤهِّلُهُ للاستشهادِ بكلِّ تلك الحوادثِ التاريخيّةِ التي ذكرها في أكثرَ من فصل: فمِنَ السلطانِ الأعظمِ الذي كان يحكمُ بسلام ووئام عشرينَ شعباً ينتمونَ إلى دياناتٍ مختلفة، إلى الشعبِ الياباني، الذي تعايشتْ فيه اثنتا عشرَ ديانةً بأمان، وقدْ «جاءَ الآباءُ اليسوعيّونَ ليضيفوا إليها ديانةً جديدةً، هي الديانةُ الثالثةُ عشرة. بيدَ أنَّ هؤلاءِ سرعانَ ما جهروا برفضِ بقيّةِ الأديان، فتسبَّبوا في نشوبِ حربٍ أهليّة».

ويحِّلُ فولتيرُ ضيفاً، كما هي عادةُ المفكِّرينَ الأحرار، وخاصّةً أصحابُ الفكرِ التجديديِّ منهم، على اليونانِ، وخَلَفِهم الرومان. فالإغريقُ، على سبيلِ المثال، لمْ يعارضوا، بالرغم من تديُّنِهم الشديد، إنكارَ الأبيقوريّينَ للعنايةِ الإلهيّةِ ولوجودِ النفس، كما أنَّ هناك، في أثينا، هيكلاً مكرَّساً للآلهةِ الأجنبيّة؛ أيْ للآلهةِ التي كانَ بوسعِهم أنْ يعلموا بوجودِها، فهلْ «من دليلٍ أقوى من هذا الدليل، لا على تسامحِهم مع جميعِ الأممِ الأخرى فحسْبُ، بلْ على احترامِهم لدياناتِها أيضاً؟».

وإذا كان موتُ سقراطَ يقفُ حائلاً دونَ تصديقِ كلامِ فولتير، فإنَّ الأخيرَ ينظرُ لتلكَ الحادثة من منظارِ زمانِه، ليُعرِّي فيها كبارَ القومِ من أصحابِ النفوذِ والأموال، فيجدُ صلةً بينَ موتِ المسيحِ من جرَّاءِ حقدِ الكتبَةِ، والفريسيّين، والكهنة، وموتِ سقراطَ الذي ذهبَ ضحيّةَ السفسطائيّينَ، والكهنة، وكبارِ القوم. وعلى أيِّ حال، فإنَّ سقراطَ لمْ يتفادَ الموتَ! كما أنَّه قدْ غفرَ لقاتليه.

وإذا كانَ اليونانُ لم يضطهدوا أحداً بسببِ آرائِه، فإنَّ

الرومانَ لمْ يقلّوا شرفاً عنهم، بلْ أنّهم «كانوا متسامحينَ إلى أبعد الحدود». وقدْ كانَ المبدأُ الأسمى لدى مجلس الشيوخ، ولدى الشعبِ الرومانيِّ هو: «وحدَها الآلهةُ معنيّةٌ بالإهاناتِ الموجَّهةِ إلى الآلهةِ»، ولمْ يسْعَ قيصرُ الذي «أعطانا القيودَ والقوانينَ والألعابَ»، إلى إرغامنا على التخلّي عن كهنتنا.

ويبدو أنَّ رجالَ الدينِ، والآخرينَ من الجلاّدينَ والمُخرِّفينَ، قدْ فهموا كلماتِ فولتير جيِّداً؛ فعدَمُ اتّهام الرومانِ بقتلِ المسيحيِّينَ الأوائلِ من أجلِ دينِهم، يعني، فيما يعنيهِ، التشكيكَ بكَمٍّ هائلٍ من التاريخِ المكتوبِ وغيرِ المكتوبِ، الذي ينسبُ للرومانِ كلَّ تلكَ الجرائم، وكذلكَ الأساطيرَ، والكراماتِ المنسوبةَ لهم. ثمَّ يتساءلُ فولتير: «هل اتّهامُ الرومانِ بقتلِ المسيحيِّينَ من أجلِ دينِهم يعطينا العذرَ في أنْ نصبحَ، بدورنا، من المضطهِدينَ، وننسى أنَّ الرومانَ سيدانونَ حتماً؟».

إنَّ خروجَ سكّانِ مدينةٍ برمَّتِهم في موكبٍ مهيبٍ، وعلى مرأىً من رؤسائهم ومسؤوليهم، فيشكرونَ الربَّ، ويُهنِّئونَ أنفسَهم لأنَّهم ذبحوا أربعةَ آلافٍ من أبناءِ بلدِهم قبلَ مئتي عامٍ، لا لشيءٍ إلاّ لأنَّهم يختلفونَ في مسألةٍ فقهيّةٍ، وأنَّ عقلاءَهم غيرُ قادرينَ على حلِّها، لَشيءٌ يدعونا لرفعِ اللثامِ عن كلِّ تلكَ الأساطيرِ التي نادتْ، وما زالتْ تنادي، بالمحبَّةِ، والسلام. ويذكِّرُهم فولتير: «إنَّ جميعَ تلك الأساطيرِ اللامعقولةِ التي تضيفونَها إلى حقائقِ الإنجيلِ، تُطفئُ شعلةَ الدينِ في القلوبِ».

وفي فصلينِ كاملينِ، تناولَ فولتير كتابَ اليهودِ المقدَّسِ، وذلكَ ليثبتَ أنَّنا «عبثاً نبحثُ في مُجملِ تاريخِ هذا الشعبِ عن لمسةِ كرامةٍ، أوْ شهامةٍ، أوْ إحسانٍ»؛ ذلك أنَّ معظمَ ملوكِ اليهودِ قدْ أفنوا بعضَهم بعضاً، غيرَ أنَّهم ما تحاربوا إلاّ دفاعاً عن مصالحِهم، لا عن معتقداتِهم.

إنَّ هذه الفكرةَ العزيزةَ على قلبِ فولتير، والتي وجدنا صداها في حروبِ اليونانِ الكبيرةِ، وكذلك الرومانِ، والتي سنجدُها قائمةً في كلِّ حربٍ ستحدثُ لاحقاً، هي التي سيحافظُ عليها التفكيرُ الجديدُ، أوْ التفكيرُ البرجوازيُّ في مرحلتِهِ الثوريّةِ، والذي فهمَهُ نيتشه جيِّداً، كما وصلتْ رسالتُهُ إلى كلِّ الثوريِّينَ في القرنِ التاسعَ عشرَ.

لا شكَّ أنَّ فولتير قدْ استخدمَ الحججَ العقليّةَ لمراوغةِ الخرافاتِ والأساطيرِ، ومن ذلكَ أنَّه أدانَ ذبحَ الأطفالِ الذي كانَ سائداً لدى بعضِ الأخويّاتِ، مُحتجّاً أنَّه لا يجوزُ فعلُ شرٍّ صغيرٍ في سبيلِ خيرٍ عظيم، كما أنَّ القتلةَ لا يمتلكونَ الحقَّ بالتصرُّفِ بحياةِ الآخرينَ، وأنَّ على القضاةِ معاقبةَ الفاعلينَ؛ إلاّ أنَّه أقرَّ بحاجةِ البشرِ لتلكَ الخرافاتِ من أجلِ الحفاظِ على الجنسِ البشريِّ.

وإذا كانَ فولتير يُكثرُ من الأمثلةِ التي تدعونا لتأويلِ القصصِ الدينيّةِ تأويلاً جديداً، بعيداً عن روحِ الاضطهادِ، قائلاً إنَّ الخرافاتِ «ولّى زمانُها مع ديانةٍ طاهرةٍ ومقدَّسة»، فإنَّه لا ينسى أنَّ اللهَ قدْ أمرَ اليهودَ «بقتلِ عَبَدةِ الأوثانِ، باستثناءِ المؤهَّلاتِ للنكاحِ من بناتِهم... ورغمَ تسامحنا معهم اليومَ، ففي وسعِهم، إذا ما غدوا هم السادةَ، ألاَّ يدعوا سوى بناتنا على قيدِ الحياةِ... ولَسوفَ يكونونَ مُلزمينَ بقتلِ جميعِ الأتراكِ

(يقصد فولتيرُ جميعَ المسلمين)».

إنَّ ما أسميتُهُ من قبْلُ طريقةَ فولتير، لا شكَّ واضحةً هنا؛ فرؤيةُ فولتير للقانون الإنسانيِّ على أنَّه انعكاسٌ لقانونٍ أكبرَ منه، هو القانونُ الطبيعيُّ، والذي هو المبدأُ العامُ لكلِّ القوانين في أرجاء المعمورة، قدْ أوقعتْهُ بتلكَ المغالطاتِ التي هي ليستْ غريبةً عن أجواءِ قَرنِ التحوِّلاتِ، لدرجةِ أنّه يُمكنُنا القولَ إنَّ الجدلَ في إلحادِ فولتير هو نتيجةٌ لتلكَ التحوِّلاتِ، على الرغم من أنَّه يقول: «تبقى عبادةُ هذه الأشكالِ الغريبةِ من الآلهةِ أكثرَ تعقُّلاً وأكثرَ فائدةً من تعاطي الإلحادِ».

وإذا كان فولتير قدْ تكلَّمَ عن الحسِّ السليم، كالمدرسيّينَ الذينَ لا يفقهونَ شيئاً؛ فذلكَ لأنَّ ثقافتَه قَدْ تسامتْ إلى درجةِ أنَّها أفلتتْ من سخريَّتِه، فإنَّنا، وكما قالَ نيتشه «لا نستطيعُ أنْ نُميِّزَ الفرقَ بين الفكرِ الحرِّ بالأمسِ، والفكرِ الحرِّ اليومَ إلاّ إذا تذكَّرنا تلك الجملةَ... أعني جملةَ فولتير: «صدِّقني يا صديقي، حتّى الخطأ له قيمتُهُ»، (إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيَّته، الجزء الثاني).

الكتابة: إنقاذ اللغة من الغرق

لؤي حمزة عباس

دار ورّاقون (العراق) والدار العربية للعلوم (لبنان) ٢٠١٣

قراءة عبد الزهرة زكي

ربما كان في بالي يوماً القليل من الكتب، كتب شعر ودين وروايات وسيرة وفلسفة وتاريخ ورحلات وربما علوم طبيعية، حين تبادر لي أن أسأل صديقاً كاتباً، وهو واحد من أفضل القراء، ما إذا كان يتفق معي أننا في نتاجنا الثقافي العربي المعاصر بتنا نفتقر إلى الكتاب الذي يشكل لقارئه حاجة حقيقية يعود معها إليه بين حين وآخر، الكتاب الذي تعاد قراءته تحت ضغط الحاجة المجردة إلى القراءة، هذه الحاجة التي لا تضاهيها حاجة أخرى حين يكون المرء قارئاً شغوفاً من نمط القراء الفريدين. فمن القراءة ما هي منزّهة من الهوى ومتجردة عن الجدوى، تلك هي القراءة الأكثر